فاصلة إيقاعات
النمل

محمد عفيفي مطر

غموضُ دمٍ هاربٍ يتقلَّبُ في صفحةِ الوجهِ،
يخبو وينبضُ،
خيطان من طائف الشك يشتبكان..
التواريخُ تمحو التواريخَ،
نَمْلٌ من الذِّكَرِ الباهتة
يدحرج ما لم يكن في تراب الذي ربما كان،
كوبٌ من الشاي يَطْفو على سطحه ورقُ «العطْر»
أخضرَ ملتمعاً في شفافيةٍ من بخار وعطر يشفّان
عن قبلةِ صَبْغةٍ في أديم الزجاجِ
وصيدُ الكلام يفرُ ويدنُو،
وأنتَ تفتّشُ في نَبْرَةِ الصوت
تعلم عِلْمَ اليقين وتجهلُ، تخبطُ خَبْطَ الذبيحةِ
بين عماءِ دمٍ، وترى طائفَ الشكِّ
واللهجةَ المستريبة نملاً يدبُّ دبيبَ الملامح في
عاصفٍ تتكسر تحت غرائزه الروحُ،
نملٌ تَنشّرُ أَرْسالهُ الحبَّ من مكمن الظلمات وتقضمه
علّه يتكتَّمُ خِبْءَ تحوله وانكشافاتِه،
وتلملم من زينــة الشكــل خطَّ الحــواجب والكحــلَ
والأحمرَ
المتآكلَ فالوجهُ تسفى معالُمه،
ليس يبقى سوى زفرةٍ تتهدم في دمعةٍ صامتة.

(ها هو.. تقوده الرائحةُ ويقودُكَ
الإيقاعُ وأهْوِيَةُ المحاريب وخفاءُ المجازات،
يكْتُمُ أشكالَه في أَرْسالٍ خيطيةٍ، أسودَ
ورمادياً وبين بين، أَشْقَرَ وأشْهَلَ وأصْهَبَ
ولا يعلن عن حضوره في عرق الرسامين والنحاتين،
وهو المَوَكَّلُ في توالي الدهور بنقل الأهرامات
ورمادِ المومياوات وأقواسِ النصر وهياكلِ
الحضارات ـ ذرةً ذرةً ـ إلى خلاء الشكل
وأبدية الفراغ المنبسط الذي تعود إليه
التراكيبُ ونضالاتُ المعاني من مُسْتَنْبَتِ
الكون في الحروف..)

هي انتثرتْ من ملامحها،
أنتَ قيد الذراعين.. هل ضَمَّةٌ علَّ هذا الجنون
من الوجد يكشفُ بين الهلاوِسِ والفزعِ المنتشي
بالنبوءات والوهم عن مَسْرَبِ النمل حتى
قراه البعيدةِ في ليلة الروح والجسد المتآكل
والنظرة الميتة!!

هيَ التَمَّ منها الرُّفاتُ وقد نَفَضَتْ عن جوارحها
ومالكِ عشاقها كلَّ ما خلَّفوا من صدى قُبَلٍ
وارتشافاتِ ريقٍ ولمسةِ جمرٍ على كُحلِ نهدين..

عشاقُها لم يكونوا،
ولا فَرْعُها لانَ تحت الندى والدموعِ ،
ولا عُشْبُها ابتَلَّ،
والزهْرُ لمْ يرتعدْ بين أكمامه مُلْهَمُ النحلِ ،
عشاقها لم يكونوا،
ومجْدُ احتراقاتِهم لم يكن غير مَحْضِ زجاجٍ تشعشعُ
نظرتُها عبره،
أَنْتَ قَيْد الذّراعين. . سانحةٌ تَدَّريك
وأخرى تعَرِّيكَ، والنملُ يكتبُ عُرْيَكَ. .
أنتَ تَقَرَّيْتَ نبرتَه وخطوطَ انديا حاتِهِ
(نقاطٌ من الأحبار الكونيّة المتسرِّبةِ
بين سطور الكائنات ومتون الخلائق،
تَهَبُ غيرَ المكتوب شفافيةَ الانتقال إلى
أجناس النطق،
تزيدُ وتنقصُ أقلَّ القليلِ فتدبُّ عواصفُ
الممكناتِ في كل شيء،
واختلاساتٌ مرحةٌ وتَفَكُّكاتُ إراداتٍ تنقلُ
القبلةَ قِبْلَةً والجسَدَ حَشْداً وتَفَتُّحَ الرعيَّةِ
تَقَيُّحَ الرغْبةِ والغدر عذراً. .
وتَلْتَفُّ جموعُها ببصيرة الزلزال واشْتباهات
المسالكِ في الممالكِ فتستبدلُ مواقعَ
الأصوات في عَماء الحلوق:
عُتلٌ علَّةٌ وجيش شجى ورحيقٌ حريقٌ
وشِعَبٌ شَغَبٌ يلْحسُ ما يَسْلحُ في لذةٍ
مُذِلَةٍ ولوْ ترى إذْ فَزِعوا فلا فَوْتْ
وتقْلب من تواريخ العشقِ الفِراشَ أَشْفاراً
والبِكْرَ العَوَانَ كرْباً ونواعيَ يَنْدُبْنَ
أسفاراً ترسفُ من قَيْدٍ إلى قوادةٍ
ولا ملجأ فملائذُ النملِ أكرمُ على نفسه
من عماءات الإمَّعاتِ الجَيَفِ
ـ بعد أن أَشْتوا بجرادِ الكَذبِ وهَلكوا
بالرُّعافِ وتبدَّدُوا تراباً في أحذية الأمم ـ
فهي الموكَّلةُ بأسرار الأرض وغيوب
الظلمة وباطلِ الليلِ والنهارْ)

أنتَ تهوي على ركبتيْكَ نداءَ دمٍ واتكاءَ خرابٍ على بعضه
وتُهيلُ على الرأس مَرْمَدةَ الظنِّ والحسراتِ
وتلطمُ وجْهَكَ من رهبةِ الظلماتِ وأزمنةِ
الدمع والأسئلة
وتنظر سجادةً لم تكن تتأملها أو ترى ما تَنَاظَرَ فيها
من الشكل واللون. .
هل كنتَ مَحْضَ خيالٍ ونَسَّاجَةً أَبْدَعَتْكَ على
نَوْلِها واشْتَهَتْ نَقْضَ ما نسجتْ فهي في نشوةٍ
من فساد العناصر ترقبُ وجْهَكَ تنحلُّ لُحْمَته وسَداهُ؟!
أم الوقتُ بَدْءُ انحلالٍ بسجادة الكون
والنملُ بينكما دعوةٌ لامتثال الهشيم
لأقداره الفاصلة
وهذي الرسومُ التي نَصَلَتْ برزخٌ بين موتين،
أم أنتما قبضةٌ من زُبالِ المواريث والعشق
والنملُ يَعْتِلُها بَدَداً في الخراب العميمْ؟!

(تَكَافَأْتَ والسَّقَطَ الذي يَسْفي ولمْ
تُناظِر الريحَ ولاصرخة لَكْ،
وأَرسَالُ النمل يتكافأ بينها الدم والخطرُ
وتكافؤَ الكفافِ وزهادةِ الشهداءْ
وإذْ تقول نملةٌ نكِرةٌ للنمل المعَرَّفِ بالنداء
والتَّنْبيهِ والتعريفِ فيتعلم الجنُّ والنبيُّ
والملكُ وحشودُ الجند، وتَمْتَثِلُ الجماعةُ

ـ امتثالَ ضرباتِ القلبِ للعاشق ـ
أرسالاً أرسالاً فَيُسْتَنْقَذُونْ)

سَرَتْ من أعالي البروق الإشاراتُ؛
مُتْهِمةً أم شآميَّةً أم يمانيَّةً أم
شظايا دمٍ يَتَضَفَّرُ بين الفراتين والنيلِ!!
لا أُفْقَ إلا الصراخُ الجليلْ
يُدَمْدِمُ في حُبُكٍ من سماءٍ تَهَدَّمُ بين مشارقها ومغاربها،
أنت لم تَحتَمِلْ،
وهي لم تحتمل،
كان نملٌ بلا عددٍ يتسلل منكَ وفيكَ،
قبائلُه ـ في ضراوة زحمتِه ـ فككْتَكَ
وبينكما شهقةٌ ومسافةُ دمعٍ ذليلْ

(في البدء كان قتالُها، وفي البدء أبداً يكون:
قبيلةٌ تَستاق قبيلةً، لكبارها القتلُ
ولصغارهاأزمنةُ أَسْرٍ تُدَرَّبُ فيه على
قتال العبودية المأجورة باستكانة الجوع
وسخرية الأبواق.
وهكذا.. يدور مِغْزَلُ الدم بين مشارقها ومغاربها.)

وبين مشارقها ومغاربها كنتَ تسفى:
جوارحُك الريحُ، أعضاؤكَ الرملُ،
والموتُ بوقٌ يجلْجِلُ،
كان الشتاءُ البَهيمُ يبعثر عُرْيَكَ في السجن،
وهي بكامل زينتها انتظرتْكَ،
تسلل ـ عبر الصفيح وأعمدةِ الصّاجِ والصُّلْب ـ
بارقُ أقراطِها وخلاخِلِها وظباءِ التَّخَطُّر
ما بين عريٍ ووشي زخارفَ،
هل مستحيلٌ يلَوِّحُ أم ممكنٌ أبديٌّ نهاياتُه بدْؤُه!!
واستباقاتُ نملِ الطلائعِ مستدفئٌ في الضلوعْ؟!

(ها هو.. رِعْدَةٌ في الجسد تَصَّعَّدُ وتهبطُ
يُغريها صمغُ الشجر والعسلُ المتَفَطِّرُ من
المنِّ والأنساغ التي تَرُبُّها أمسياتُ
الحلم والغناءِ الكظيمِ.. فاتحةً سبلَها
لاكتمال الليل حتى آخرِه..
وها هو.. من مكامِنِ دِفْئِه المظلِمِ يرسلُ
طلائعَه بشارةً بالانقلاب الفلكيِّ وعِلَّةً
شعريةً لأوائل النوّار وأزهار المشمشِ
والخوخِ وخَصْفِ الورقِ على مكامِنِ
الغرائزِ في الشجر،
حتى يُتَعْتِعَهُ جنونُ الانتشار حول مشافِرِ
التين المتهتِّكِ وحَلَماتِ التوتِ وإغْواءاتِ
العناقيدِ وحرائر القطيفة من
طَلْعٍ وحَبٍّ حصيدْ)(*)

القاهرة

(*) من ديوان بالعنوان نفسه يصدر عن دار «شرقيات» القاهرة.